بحوث في اللغة العربية وآدابها: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات الأجنبية بجامعة إصفهان
العدد ٦ (ربيع وصيف ١٤٣٣ هـ. ق/١٣٩١ هـ. ش)، ص ٧ ـ ٢٦

صلة الأدب بالأخلاق في آثار ميخائيل نعيمة[١]

سردار أصلاني❖
علي أحمدي❖❖

الملخص

الأدب في رؤية ميخائيل نعيمة هو التعبير عن الإنسان وكل حاجاته وطموحاته تعبيراً جميلاً صادقاً، والأخلاق هي مجموعة من الأصول والمبادئ التي تشرف على مسير الحياة والكمال وسعادة الإنسان. الأدب والأخلاق في آثار نعيمة ممزوجان، وثمة علاقة وثيقة بينهما ويتمخّضان عن معين الفكر الواحد ويتتابعان الأهداف المشتركة؛ منها: الوصول إلى معرفة النفس ومكنوناته والغاية من وجودها التي تُسفر عن معرفة الله والاتحاد به.

ولا يمكن فصل الأدب والأخلاق في آثاره إلا في العنوان؛ لأنه كان شديد الالتصاق بالقضايا العامة، ووقوفه الصامد في مناصرة الأخلاق والقيم وفي مقدمتها قيم الحريّة واحترام الإنسان وحقوقه. وكان نعيمة أديباً فكرياً أخلاقياً، وشعوره مفعمة بالمعرفة والأخلاق السامية الرفيعة.

نرى أنّ أدب نعيمة مرآة صافية لفكره وعواطفه وآلامه وآماله، وكان صدى حقيقي للمجتمع وما وقع فيه. وله رسالة سامية يقظة في تغذية الوجدان البشري، وإفاقة الضمير الإنساني، وتنمية الفضائل الأخلاقية. وأيضاً كان أدبه معبّراً عن النفس البشرية وبثّ الخير والفضائل والتمسك بالقيم الإنسانية.

عزلته من الناس في زمان وعدم زواجه خلال عمره تحكيان عن أمانيه وطموحاته في النيل إلى معرفة الحياة وربّها، بينما الحياة العائلية في رؤيته تحول دون الوصول إلى هذه الغاية.

الملاحظة الهامّة في هذه المقالة هي أنّ أدب نعيمة أدب ملتزم ورسالي بقي أميناً لرسالته، ويصوّر منهج الحياة المضيء للماشين والحائرين في ظلمات الجهل والوهم والشك؛ كما هو أدب إنساني موجّه يجعل الذات البشريّة محوراً له.

وقد كرّس نعيمة جهده في سبيل سعادة الإنسان والحرية وإرواء القلب والفكر والروح. من هنا كلّما نتحدّث عن أدب نعيمة، نكشف عن الفضائل الإنسانية وآرائه القيّمة التي تشمل كل قضايا الإنسان والحياة.

الكلمات الرئيسية: ميخائيل نعيمة، الأدب، الأخلاق، الالتزام الأدبي، حرية التعبير.

---

١. تاريخ التسلم: ١٣٨٧/٢/٢٥هـ. ش (٢٠٠٨/٥/١٤م)؛ تاريخ القبول: ١٣٨٨/٤/٩هـ. ش (٢٠٠٩/٦/٣٠م).

❖ الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها ـ جامعة إصفهان.
❖❖ المتخرج بدرجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها من جامعة إصفهان.

المقدمة

بما أنّ الأدب مرآة صافية وصدى حقيقي لحياة المجتمع، فمن شأنه ان يجسّد ما وقع فيه تجسيداً واضحاً بأسلوب جميل وبليغ.

والأخلاق عبارة عن كيفية سلوك الإنسان وتصرفه مع الله وحقائق الوجود والإنسان. وإذا كان الأدب تفسير عن النفس الإنسانية ـ التي انطوى فيها عالم كبير ـ والتعبير الجميل والفني عن رؤية الأديب الكونية، فالأخلاق حصيلة عملية لفهم الأديب عن هذا التفسير والتعبير. وما كان شأن الأدب إلا أنّه المعبِّر الأفضل عن النفس البشرية. والتحدث عن النفس البشرية هو التعبير عن العالم بأسره.

هكذا يتناول الأدب الأخلاقَ وما يعنى به، ويهتم بالفلسفة وما هو مرتبط به، ويعتني بالعلم وبالذي هو ذو علاقة به، ويعنى بالدين والتاريخ والسياسة والاقتصاد وما هو على صلة بكل منها.

و يتناول هذه الأمور كلها بأسلوب ليس فيه من الدين زماتته، ولا من الفلسفة جفافها، ولا من العلم تعقّده، ولا من الأخلاق قيمته، ولا من السياسة سفسطتها، ولا من الاقتصاد تدجيله، ولكنه أسلوب يثير فكر القارئ وخياله ووجدانه.

من المفاخر الروحية والأدبية في الأدب العربي الحديث هو **ميخائيل نعيمة** الذي اعتقد بامتزاج الأدب والأخلاق امتزاجاً وثيقاً. اقتحم هو في معارك فكرية وأدبية لتعزيز الحق والمعرفة والجمال، وذلك بأسلوب أدبي ممتزج بالأخلاق، ومارسها في سَدى أعماله الأدبية ولُحمتها.

فأديبنا المفكر لم يكن من أصحاب «الفن للفن»، ولم يكافح طوال حياته في إثبات نفسه وشجب الآخرين، بل كان يعتقد بوجوب جهود الأديب في طريق معرفة الحياة والحق للعمل برسالة الأدب السامية؛ حيث يقول: «**للأدب رسالة سامية، وكل من أنكر على الأدب رسالته، كان مارقاً من الأدب**» (دروب، ١٩٧٢م، ص ٩٨). هذه الرسالة هي مساعدة الإنسان في قفزه من الأرض إلى سماء الفضائل الأخلاقية والكمال الإنساني المنشود.

بدراسة آثار نعيمة وخاصة سيرة حياته المسماة *بسبعون* ـ وهي في ثلاثة مجلدات ـ يثبت للدارس أنه لا توجد كلمة واحدة غير أخلاقية، ولا يسامح في أي عمل أدبي له يفسر خروجه عن دائرة الأخلاق والعمل بمقتضاه. ندّعي أنه كان فريداً بين زملائه الأدباء في أميركا الشمالية ولبنان؛ وذلك لرؤيته في وجوب مزج الأدب بالأخلاق والقيام بها عملياً، فهو الأديب الأخلاقي الملتزم بتمامه.

وأما المقالة الحاضرة، فهي تبحث عن أدب ميخائيل نعيمة والصلة الوثيقة التي توجد بين أدبه والأخلاق، وتبيّن مظاهر هذه الصلة في مؤلفاته التي ساقها في التعبير عن فلسفة الحياة؛ كما يتجلّى له في تأملاته وفي خلواته، بأسلوب جميل دون أيّ غموض وتكلّف.

١ـ ظروف حياة الأديب

كان من شعراء المهجر المشهورين. ولد في بسكنتا بلبنان سنة ١٨٨٩م. من أبوين أمّيّين. تلقّى تعليمه الابتدائي في قريته، ثم التحق بمدرسة الطائفة الأرتوذكسية التي أنشأها الروس. فأظهر نبوغاً وتفوّقاً لفت أنظار معلّميه. فأرسلوه في بعثة تعليمية إلى مدرسة الناصرة بفلسطين، حيث التحق بدار المعلمين الروسية. ثم أُرسل إلى روسيا لاستكمال تعليمه العالي. وهناك اطلع على آفاق الأدب الروسي؛ حيث استهواه الأدباء الروس وخاصة ليو تولستوي الذي أُعجب بآرائه وأفكاره الروحية.

وفي عام ١٩١١م عاد من روسيا إلى موطنه لبنان، لكنه لم يستطع التكيف مع الواقع الاجتماعي هناك. فحزم أمتعته وسافر إلى واشنطن، وراح يتعلم اللغة الإنجليزية، والتحق بكلية الحقوق وتخرّج فيها سنة ١٩١٦م. وخلال تلك الفترة الدراسية كان قد التحق بإحدى الجمعيات الدينية ذات الأفكار الروحية المتصوفة.

و في عام ١٩١٩م التحق بالجيش الأمريكي ليؤدي الخدمة العسكرية. فالتحق بإحدى الوحدات المرابطة في فرانسا. وبعد إنهاء الخدمة العسكرية التحق بجامعة «رين» في فرنسا. وفيما بعد عاد إلى أمريكا سنة ١٩٢٠م مزوّداً بمعارفه ودراساته الواسعة. فانضمّ إلى «الرابطة القلمية» مع رفاقه من شعراء وأدباء المهجر الشمالي الذين اختاروه مستشاراً للرابطة، وعمل بها فترة طويلة. لم يطق نعيمة صبراً على الغربة، فقفل راجعاً سنة ١٩٢١م إلى موطنه لبنان ليستقر به حتى نهاية عمره.

تأثّر نعيمة بالمؤثرات الكثيرة في آرائه؛ منها: الأدب الروسي، والأدب الغربي، والفكر الصوفي الشرقي، والفكر الإسلامي الصوفي. ومن أهم أعماله: *زاد المعاد*، *والبيادر*، *والأوثان*، *أبعد من مسكو ومن واشنطن*، *واليوم الأخير*، *وأبو بطة*، *ويا ابن آدم*، *وهوامش*، *والغربال*، *والآباء والبنون*، *وأيوب (رسائل)*، *وأحاديث مع الصحافة*، *وسبعون*، *وجبران خليل جبران*، *والدروب*، *وكَرم على الدرب*، *وهمس الجفون* (شعر)، *والغربال الجديد والمراحل*.

توفي ميخائيل نعيمة في الساعة العاشرة والدقيقة ٢٢ من ليلة ٢٨ شباط ١٩٨٨م. عن ٩٩عاماً. وكان في مطلع الشهر نفسه قد حصل على جائزة «جواد بولس» للآداب. وفي تعليقه على الجائزة قال نعيمة: «المال أسوأ عدوّ للإنسان».

من أقوال نعيمة قبل وفاته: «أمهلني قليلاً بعدُ يا قلمي! قليلاً وترتاح مني وأرتاح منك. أمهلني ففي السراج ما تزال بقية من الزيت، وفي الدواة بقية من المداد. وقبل أن تستلّ الشمس نورها من عيني فتشرق ولا أراها، وتغرب ولا تراني» (عبدالأحد، ٢٠٠٢م).

٢ـ الأدب والأخلاق

قبل أن نتطرّق إلى صميم البحث، يجب علينا أن نأتي بتعريف الأدب والأديب والأخلاق، حتى يُحَدَّد إطار البحث كي لا يؤدي إلى اطالة الكلام.

الأدب هو التعبير عن الإنسان وكل حاجاته وحالاته تعبيراً جميلاً صادقاً من شأنه أن يمهّد له الطريق إلى غايته.

والأديب هو مرآة نفسه، وليس عليه أن يكون مرآة عصره إلا على قدر ما ينعكس عصره في نفسه. فقد يسبق الأديب عصره، والمهم أن يكون مرآة صادقة لنفسه وأميناً لرسالته؛ فيجمع حيث غيره يفرق، ويبني حيث غيره يهدم، وينير سبل الحياة للماشين في الظلمات.

وأما الأخلاق، فهو مجموعة من الأصول والمبادئ التي تشرف على مسير الحياة وكمال الإنسان.

كما أن ميخائيل نعيمة يعدّ من أدباء المهجر ويمكن القول: إن الأدب المهجري كان أصدق تعبيراً عن نفسية الأدباء الذين أنتجوه؛ ثم عن نفسية أمتهم. فبُعدهم عن ديارهم جعل لديارهم قيمة في حياتهم ليست للمقيمين.

ومن خصائص أدب المهجر الميل إلى استبطان النفس البشرية واستكناه أسرار النفس البشرية؛ وأيضاً التجديد في الموضوع والميل إلى الطبيعة والامتزاج بها، والتأمل في حقائق الكون وأسرار الحياة.

اتخذ نعيمة نزعة خاصة في حياته، وسيطرت عليه عاطفة التفاؤل وحب الحياة والتفتّح عليها والتمتع بنعمها الغامرة. فجعل نعيمة رسالته في إحقاق العدالة والحرية وإزالة مشكلات الناس، وإرشادهم على طرق غير التي يسلكونها.

أدب نعيمة أدب ملتزم ورسالي، ومن ميزاته حرية الكلمة التي تجعله أن يغوص في أفكاره وصور خياله يسدّد خُطاها العقل والفطرة السليمة. من هنا نتحدث عن أدبه الحرّ وأدبه الموجّه؛ إذ له رحابة الأدب ورحابة الكيان الإنساني.

يقول نعيمة حول مهمة الأدب:

إنّ مهمة الأدب هي إقامة العدل ما بين الحاكم والمحكوم، ونصرة المستعمَر على المستعمِر، والمظلوم على الظالم، والمحروم على الحارم. لقد دعاني البعض هدّاماً. أجل، إنني لَهدّام، غير أنني أهدم لأبني. والذى أهدمه ليس كما يتوهم البعض أدباً قديماً، والذي أبنيه ليس ما يدعونه أدباً جديداً، فالجمال والحق ـ وهما كل الأدب ـ لا يشيخان ولا يتداعَيان ولا يقوى بشر على هدمها، إنّ آثاراً يتركها الإنسان في الحجر تندثر باندثار الحجر، لكن آثاراً ينقشها الإنسان في روح أخيه الإنسان لَباقيةٌ إلى الأبد؛ لأنّ الروح باقية إلى الأبد. والأدب الذي هو بحق أدب، يجب أن يكون نقشاً في الأرواح، لا غشاوة على الأبصار. فاطلبوا معاً أن يكون لنا أدبائنا رسلٌ للروح لا حاكةٌ للأقنعة المزركشة (نعيمة، آ ١٩٣٢م، ص ٥٤).

٣ـ الإنسان في أدب نعيمة

بما أنّ الإنسان يعتبر المحور الأساس لعلم الأخلاق، نلاحظ أن أكثر كتابات نعيمة تدور حول الإنسان وأسراره الكامنه وهدفه من الوجود وجبروته ومجده ومشكلاته المادية والروحية وافتقاره إلى الله.

ولو ألقينا نظرة عميقة على الإنسان في عصره الراهن، لرأيناه بلغ الأوج كنسر في القمّة الشّمّاء:

وكان من حسن حظ الأدب العربي أن رُزق مفكراً كنعيمة، وفي أهم معقلين للحضارة الأوروبية الحاضرة : روسيا وأمريكا، فرأى بأم عينه وبما وهبه الله من بصرة ظلمات هذه الحضارة وفضائحها، ليصبّ جامّ غضبه عليها في نسق واحد ثابت في جميع ما ألّف وكتب وصرّح، وبنفس ثابت هادئ قويم» (شيا، ١٩٨٧م، ص ٢٥٦).

يرى نعيمة أنّ المجتمع الصالح لا يقوم إلا بالأفراد الصالحين؛ مثلما لا يقوم البناء الجميل إلا بحجارة جميلة. والعدل والحرية لاينبعان من القانون، بل من القلب والفكر اللذين هما مصدر كل خير وشرّ. فمن شاء أن يبني للإنسان عالماً يسوده العدل وتظله الحريّة، عليه أن يبني أولاً وآخراً في قلب الإنسان وفكره.

ومن هنا تظهر أهمية ملامسته للقضايا العامة، ووقوفه الصامد في مناصرة الأخلاق والقيم، وفي مقدمتها قيم الحرية واحترام الإنسان وحقوقه.

في اعتقاد نعيمة، لا يمكن لأي أحد أن ينعزل عن مشكلات الحياة مادام هو بعضاً من تلك الحياة؛ وكيف؟! فالإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا انعكست فيه كل الإنسانية. وما نرى من أن بعض الكتّاب يميل إلى العزلة عن ضوضاء الناس ومشاحناتهم التافهة، فذلك أمر جدّ طبيعي؛ إذ إن مثل ذلك الأديب يستطيع في عزلته أن يرى حياة الناس بخيرها وشرّها من خلال عين لا يُعميها الغبار الذي تثيره مشاحنات الناس، والرغوة التي يغرقون فيها إلى ما فوق آذانهم. وما أكثر ما يكون الأديب قريباً إلى الناس من الذي يحتكّ بهم في كل ساعات النهار والليل، فينسى أنّهم إخوته وشركاؤه في حياة؛ مثل ما هو أخوهم وشريك لهم في حياتهم! وما أكثر ما نعمى عن الأمور التي هي على بُعد خطوة منا، ونبصرها بوضوح إذا ابتعدنا عنها! ولا حياة للأدب إلا من الحياة. فهي له بمثابة الماء والهواء والغذاء للجسد.

ميخائيل نعيمة في أدبه يتحدث كثيراً عن معرفة النفس وأسرار الطبيعة، ويرى أن الإنسان في كل ما يفعل وكل ما يقول ويكتب إنما يفتّش عن نفسه، وأنّ سعيه وراء الجمال، وإنما نسعى وراء أنفسنا في الجمال. وإن طلبنا الفضيلة، فلا نطلب إلا أنفسنا في الفضيلة. وإن بحثنا عن المكروب، فلا نبحث إلا عن أنفسنا في المكروب.

أدب نعيمة في الواقع مسرح يظهر عليه الإنسان بكل مظاهره الروحية والجسدية. فإنه يعتقد:

إن الإنسان يرى في الأدب نفسه ممثلاً ومشاهداً في وقت واحد . هنالك يشاهد نفسه من الأقماط حتى الأكفان، وهنالك يمثل أدواره المتلوّنة بلون الساعات والأيام، وهنالك يسمع نبضات قلبه في نبضات سواه، ويلمس أشواق روحه في أشواق روح غيره، ويشعر بأوجاع جسمه في أوجاع جسم إنسان مثله. فيرى من نفسه ما كان خفيّاً عنه، وينطق بما كان لسانه عَييّاً عن النطق به، فيقترب من نفسه ويقترب من العالم (نعيمة، آ ١٩٣٢م، ص ٩٨).

يلاحَظ أنّ نعيمة كثير التحدث عن نظرته إلى الكون والإنسان والحياة، مشدِّداً على ألوهية الإنسان ووحدة الوجود، وعلى أن المدنية هي في داخل الإنسان، وأن العلم هو معرفة الإنسان نفسَه، وأن الكمال هو في أن يتعرّى الإنسان من كل ما يعلق بإنسانيته من الأدران.

و في اعتقاده أن هدف الإنسان في حياته هو أن يعرف نفسه وجميع ما انطوت عليه من قوى هائلة، لو أحسن هو استثمارها، لاستطاع أن يعرف النظام الذي يسيّره ويسيّر الكون، ولبلغ بتلك المعرفة أقصى ما يتمناه من الحرية والسلام والطمأنينة.

في رأي نعيمة

كل ما في الطبيعة ثمين وجميل وشريف، ولكن أثمنه وأجمله وأشرفه على الإطلاق هو الإنسان . فهو الكائن الذي لا حدود لكيانه. هو الفكر الذي لا ينثني يفتش عن ذاته وعالم كبير وسرّ كنين وكنز دفين. هو الإنسان وإناء قدسي لحقيقة أزلية أبدية هي الله. ولا فرق بين رفيع ويافع، وبين شاب وأشيب، ونحن لا نملك من معرفة الغيب ما يخوّلنا أن نحدد قيمة أيّ إنسان، ثم أن نجعل تفاوتاً فاضحاً بين قيمة إنسان وإنسان. فالله ما خلق الإنسان ليُذلّه ويمتهنه ويشقيه، بل ليرفعه إليه ويكرمه ويسعده؛ ولا براه من الطين ليُبقيه طيناً، بل نفخ فيه من روحه ليجعله روحاً كروحه. فالمعبد الأمثل هو الذي إذا ما دخله العابد ذليلاً وصغيراً وكسيراً، خرج منه أبيّاً وكبيراً ومجنّحاً» (نعيمة، ب ١٩٧٣م، ص ٦٥).

نستنتج من هذه الفقرة أن أفظع الناس في عقيدة ميخائيل نعيمة هم الذين يعتزّون بمذلة الغير، وهيامهم في وادي الجهل والظلمة، ويحبون الحكم والسلطان على الناس. فلا يسرّهم شيء مثلما يسرّهم أن يعفّر الناس لديهم جباههم، وأن يزحفوا إليهم على الأكفّ والرُّكَب صباحاً ومساء. ولعلّ أنبل الناس في عقيدة أديبنا هم الذين لا يُذلّون إنساناً، ولا يَذلّون لإنسان؛ لأنهم يعلمون أنّ رفعة تنهض على أكتاف الذُّلّ لَمذلّة أحطّ من الذُّلّ، وأنّ صورة الله فيهم هي صورة الله في كل إنسان، وعلى الأجيال الحاليّة أن ينصرفوا قبل كل شيء وبعد كل شيء إلى تعزيز الإنسان في أنفسهم. فمن عرف قيمته كإنسان، عرف قيمة الناس أجمعين. فما خفض الجَناح لمغرور بمال أو سلطان، ولا صعّر الخدّ على منبوذ أو مُهان. وإذا ذاك، فلعلّ الأجيال الآتية تعرف عالَماً يسوده اللطف والصدق والتعاون، وتتذوق في اليقظة ما لا نتذوقه نحن إلا في المنام من حلاوة العدل والإخاء وحسن النظام.

نلاحظ أنّ نعيمة في أفكاره وأدبه يتطرق إلى شتى مظاهر الأخلاق، ويعمد إلى ضرب من النظرية النقدية في قضايا الحياة وأمور الإنسان، وفي رأيه أنّ الإنسان كالبحر يقذف اللآلئ والأصداف، غير أنّه أكبر من كل ما فيه من لآلئ وأصداف، وإن دبّ على الأرض برِجلين من رصاص، ويَدَين من حديد، فهو يمنطق الأكوان بخيال من نور.

ويرى أنّ الإنسان هو الصورة الأسمى للقوة التي لله، وهو يملك مثلها القدرة على الإبداع والتنظيم، إلا أنّه لا يزال بالنسبة إلى تلك القوة كالطفل بالنسبة إلى والديه؛ فهو يتفتّح جيلاً بعد جيل عن قوى كامنة فيه، ولا حدَّ لها على الإطلاق.

والإنسان عند نعيمة نقطة البدء وعنده تنتهي النهاية: يموت ثم يعود فيولد من جديد ليتابع ما انقطع بالموت من حياته الواعية على الأرض. أما نهايته، فالكمال، والكمال في نظر ميخائيل نعيمة يعني معرفة كل شيء، والقدرة على كل شيء؛ لأنه يعتقد بالتقمّص في استكمال النفس وتصبيغها بصبغة الله؛ كما نرى أنّ الموت من منظار ميخائيل نعيمة وجه الحياة الآخر؛ فهو يصور اللحد بأنه مهد الحياة، قائلاً في تفاؤل غريب: «**وعندما الموت يدنو واللحد يفغر فاه، أغمِض جفونك تبصُر في اللحد مهدَ الحياة**» (نعيمة، ١٩٤٥م، ص ٨).

١.٣ـ إيمان نعيمة بالإنسان

بعد جولتنا الوئيدة في أدب نعيمة، تبيّن لنا أنّ أخلاق نعيمة تجلّت في إيمانه بالإنسان وبالله وبالفيض الإلهي ووحدة الوجود والحبّ والمحبّة والحريّة والمعرفة والمجاهدة وبقوى الإنسان والفضائل الإنسانية ؛ كالعفّة والطهارة والجمال والكمال والصدق والإخلاص والحق والحقيقة والعدل والمساواة والصبر والقناعة والسلام ؛ وأثرها ظاهر جليّ بوضوح في كل ما خطّه قلمه.

الملاحظة الهامّة في أدب نعيمة هي الإنسان. هو العنصر الوحيد الذي يملك نعمة العقل والإحساس والعاطفة. قلب نعيمة عامر بالعاطفة والإنسانية، ونرى هذه العاطفة تجعله ينظر إلى الإنسان نظرة مِلؤها المحبّة والتفاؤل والطمأنينة. و كان يستمدّ الغبطة الروحية والنشوة الإلهية من الطبيعة مباشرة، فتطمئنه الطبيعة وتوحّد في قلبه الخير والشر، وقد أصبح قلبه واحة للقريب والبعيد. فيتمنّى للناس جميعاً أن يجعل الله قلوبهم قلباً واحداً، وأن يفعم هذا القلب محبّة وسلاماً وطمأنينة.

فقد عالج نعيمة مسألة العلاقات الإنسانيّة بإثارة إنسانيّة الفرد وتذكيره بالعلاقات الأخلاقيّة النبيلة والسّامية. فأيّ الناس ليس دعامة لحياة كلّ إنسان؟ إنّه يرى النّاس يحيّون بعضهم ببعض، فكيف لا يحيّون بعضهم لبعض؟!

إنّ الحياة عنده شركة إنسانيّة،والنّاس عائلة واحدة ؛ فعليهم أن يعيشوا في ظلّ اشتراكيّة إنسانيّة كاملة. ويدعو إلى أن نعتبر الإنسانيّة بمجموعها شركة تعاون، لا تمييز بين أفرادها. وقد أشار نعيمة في أيّامه الأخيرة أنّه علينا أن نعيش في عالم الأخذ والعطاء، لا في عالم البيع والشراء.

قد انبعثت آراء الكاتب في الإصلاح الاجتماعي من إيمانه بالحياة وغاياتها، ويبدأ بالفرد الصّالح ليصل إلى المجتمع الصّالح. من هنا يريد نعيمة أن يحرّض الإنسان على إصلاح نفسه حتى يستأصل جذور الجهل والرذائل في مجتمعه. فالشيء الوحيد الذي يلفت نظره، هو مناصرة المضامين الأخلاقية ؛ من ثمّ يشعف بها، ويضحّي نفسه لأجلها.

ومن أهمّ هذه المضامين العدالة وحريّة التعبير والإرادة والفكر. إننا نحسّ إحساساً عميقاً بنبل رسالة نعيمة ؛ فقد كان قلمه سليساً ساقه في قالب الإصلاح. فمن ثمّ نراه حيناً مِبضعاً وحيناً بَلسماً على كل ما خطّ.

وقد عالج المسألة الإنسانيّة بالهدم والبناء معاً حين عمد إلى إبراز النّزعات المتضاربة في أعماق المرء، من خلال الكلمات المتّضادة وألوان الطباق مثل: «الحاكم والمحكوم، والظالم والمظلوم، والهادم والمهدوم، والصّالب والمصلوب ».

و أمّا إيمان نعيمة بالإنسان ودعوته إلى الاتحاد بالله والمساواة، فقد جعلا قلبه مسكناً للفضائل ومسكناً للورع والحبّ والصبر والإخلاص والصدق والوفاء. كل هذه الأحوال عبّر عنها في ابتهالاته مصلّياً منشداً :

و اجعل اللهمّ قلبي / واحةً تسقي القريب / و الغريب / ماؤها الإيمان، أما غرسها / فالرجاء والحبّ والصبر الطويل / جوّها الإخلاص، أما شمسها / فالوفاء والصدق والحلم الجميل. (نعيمة، ١٩٤٥م، ص ٤٣).

لا شك أنّ الذي قضى عشرين سنة من عمره في أمريكا يتعرّف على الإنسان الغربي بكل عاداته وتقاليده ؛ فيقبل على ما يميل إليه الغربي من مضامين الحرية والعدالة، ثمّ الصراحة والإيجاز الذي يقتضي العيش في البيئات الحضارية. فيبدو أنّه استطاع أن يوفق في قصده ـ تحريض الإنسان على الإصلاح ـ وسَوقه إلى المنهج الذي يرمي إليه.

فإذا تأمّلنا في آثار نعيمة، نجد أنّ نزعته الإنسانية واعتقاده بأنّ الإنسان صورة إلهية تلعب دوراً هامّاً في مسلكه. وهذه النزعة تبلورت في أدبه، وهو دائماً يذكر بأنّه من أبناء اليوم لا من بقايا الأمس، ودائماً يهمس في أذنه ويصرخ أنه إنسان إلهي يمتلك جميع الأسرار الإلهية، وليس آلة في يد هذا أو ذاك يتصرف بها ساعةَ يشاء. ومكانة الإنسان في أدبه تنبثق من روحه الإلهي الذي منه، وتجلّت فيه معطيات وسمات إنسانية.

يتألق عطاء نعيمة في الأدب الإنساني حتى صار هو أحد نجومه الساطعة. وكم تدعو في آثاره كل إنسان أن يعي حقيقة أصله التي انفكّت من مَعين العطاء والنعمة والجود!

كان على الحق أن ندعو نعيمة ناسك «الشخروب» ؛ إذ إنّه صوفيّ في أخلاقه، وفي جهاده المتواصل، وفي شعوره العميق بالمسؤولية، مسؤولية إنقاذ الإنسان من آفاته، امرأة كان أم رجلاً. وقد أحسّ بأنّ كل فرد مسؤول تجاه العالم بأسره ؛ فدعا إلى الشركة الإنسانية.

من هنا نلاحظ أنّ نعيمة لا يفرّق بين الإنسان الرجل والإنسان المرأة. فكلاهما مسؤول عن المجاهدة الفكرية والقلبية، وكلاهما مسؤول عن الحياة، والرجل دون المرأة فهو ناقص في ناسوته ولاهوته. مع هذه التفاصيل، يظهر لنا أنّ هذا الإيمان بالإنسان في فكرة نعيمة تختصر في صوفيته وكونه صوفياً في الأخلاق ؛ وهناك نفحات إلهية في منهجه الذي يدعو إلى المعرفة والكمال والاتحاد بالله.

يرى نعيمة من خلال الإنسانية آلام قومه وحاجاتهم ؛ ولذلك يثور من أجل كرامة أمّته. وهذا الشعور يجعل نعيمة أن يفكر ويعمل أخلاقياً، ويكون من المناصرين للفضائل الإنسانية، ويجعله لا يخاف الموت ولا تضنيه فكرته ؛ كما يبتعد عن أذى كل مخلوق ؛ لأنّه يعتقد أنّ المخلوق جزء لا يتجزّأ من الوحدة الوجودية. وذاب في رسالته وعاش لها وبها، وظل يحيا في صميم الحياة وخفق قلبه بالإنسانية.

وكما أشرنا، فإنّ التأمّل هو محور أساسي لأدب نعيمة. وفي هذه المرحلة نشاهد تفاني نعيمة في الإخلاص والصدق والجهاد في إرساء الفضائل الإنسانية.

تبرز النزعة الإنسانية في كتابات نعيمة في أكثر من دائرة وإطار ؛ فهو يرفض التحالف الإقطاعي والسياسي، ويندفع مع عاطفته الإنسانية ؛ فيرى غاضباً ما يتمثل في المجتمع البشري من انحراف عن جادة الخير والعدل.

ينظر نعيمة دائماً إلى مجتمعه بعينيه الناقدتين، ويقوم بالنقد، ويعرّف جذور الظلم والجهل والتخلّف في أذهان الناس. من هنا يتعمق انطلاق نعيمة الإنساني في ثورته على المستبدّين الطغاة، وتصفو رؤيته في استجلاء مصادر الظلم والجهل، وهو متفائل بمستقبل المجتمع البشري، شريطة أن يستيقظ الناس من غفلتهم وجهلهم.

إنّه متفائل بالحصول على الفردوس المفقود الذي يأمله الإنسان ويحبّه ؛ فمال إلى الإصلاح، وفي سبيل الإصلاح وجّه نظره إلى نفس الإنسان ؛ إذ يرى أنّ جذور كثير من الأمراض والآفات الإنسانية تكمن في عدم معرفة الإنسان بنفسه. وهو يرى سرّ نجاح الإنسان وسعادته رجوعه إلى نفسه ؛ لأنّه يعتقد أنّ الحقيقة الأصلية دفينة في نفس الإنسان وينبع منها كل شيء.

و لا شك أنّ أدب نعيمة غنيّ بالعديد من الخصائص الإنسانية والقيم الروحية العامة، وهو عامل رئيسي في تحويل واقع الأمة العربية من الركود والجهل والخفقان إلى النهوض والوعي والانتباه والتجديد في بناء الفضائل الأخلاقية التي كادت أن تنسى على مرّ العصور. وله دور هام وفاعل في بناء المدينة الإنسانية.

٤ـ الفضائل الأخلاقية في أدب ميخائيل نعيمة

٤ـ١ـ المحبّة

المعهود أنّ ميخائيل نعيمة قد تحدّث بالإكثار عن الحب والمحبّة في أدبه الرائع ؛ إذ إنّه يعتبر من الأدباء المهجريين الذين يفكرون وينظرون إلى الإنسان وكل ما يرتبط به من الحياة والموت وخلود النفس والطبيعة رومانطيقياً. من هنا تعدّ المحبّة من ميزات هامة وأساسية لأدب المهجر.

المحبّة الّتي نتحدث عنها هنا ليست بمعنى حبّ الرجل للمرأة فقط ؛ إذ المحبّة في نظر نعيمة قوّة أبدية وباقية ما بقي الزمان، وليست بفضيلة ؛ إنّها ضرورة الحياة. يشير نعيمة إلى هذا الموضوع قائلاً :

إذا أضاع الحب نفسه فيما تثيره شهواتُ اللحم والدم ،فقد تخلى عن قوته، وأصبح عرضة للانحلال بانحلال اللحم والعظم. ومادام الإنسان يخضع حبّه لسلطان اللحم والدم، دامت الحسرات، والأوجاع تترصد عند كل عطفة من الطريق. فيجب عليه أن يختار بين ذاك وهذا، بين الحب الصافي والطاهر الذي هو غبطة صافية، والحب الممزوج بشهوات اللحم والدم، الذي يحمل معه الكثير من الأوجاع والآلام والمرارة وخيبة الأمل (نعيمة، ١٩٥٢م، ص ٢٤٦).

المحبّة والحب مفتاح لكل أسرار الوجود. فبالحب تتماسك وتتلاحم جميع الكائنات، وبه تحيا، وبدونه لا معني لوجودها، والإنسان متى عرف ذلك الحب، عرف الله ؛ كما يعتبره أقدس ما في الحياة الذي يكفّر عن جميع الذنوب. يقول نعيمة : «**إنّكم تحيون لتعرفوا المحبّة، وإنكم تحبون لتعرفوا الحياة ؛ فبغير المحبّة لن نفهم الحياة، وبغير الحياة لن نفهم المحبّة ؛ فكأنّهما واحد**» (المصدر نفسه، ص ٧٨).

إنّ البشريّة تشكو اليوم أكثر منها في كل يوم قروحاً وجروحاً كثيرة في قلبها، ولا بلسم لها إلاّ المحبّة ؛ إذ المحبّة دستور الحياة ومفتاح كل عقدة، وهي الألفة التي تربط كلّ ما في الكون، ومفتاح السّعادة. فلولاها، لما تذوّق الإنسان لذّة الحياة. و إذا كانت المحبّة تصاحب المعرفة، تستطيع أن تجلو بصائر الإنسان وأبصاره، ويُفيق ضميره كي يكون يقظاً منتبهاً. والمحبّة هذه مرآة صافية تعكس كل ما في الكون صافياً وجليّاً. من هنا يعتقد نعيمة :

البون الشاسع بين المحبّة والحب؛ إذ إن الإنسان يشتمّ في المحبّة أريج الألوهة المنزّهة عن اللحم والعظم والدم. وأما الحب، فتنفوح منه الغرائز الحيوانية التي لا تعرف إلا إشباع شهوات جنسية، وليست سوى الممهِّد إلى المحبة المتسامية عن كل شوق ـ غير شوق الفناء ـ في من تحبّ. وهذه المحبّة تعدّ من رؤية نعيمة المصهر الروحي للرجل والمرأة ومسوّس الضمير اليقظ» (نعيمة، ١٩٧٣م، ص ٨٢).

نعم، المحبة في آثار نعيمة ليست سوى ناموس الله، وهي عصير الحياة، في حين البغضاء صديد الموت، والإنسان ما خلق وما عاش إلا ليعرف المحبّة ـ كما ورد في القرآن : ﴿**لا أَسئَلُكُم عَلَيهِ أَجراً إِلَّا المَوَدَّة فِي القُربى**﴾ (الشورى ٤٢ ، ٢٣).

وأمّا ينبوع المحبّة، فهو يبدأ من نفس الإنسان ؛ إذ الإنسان لم يكن طافحاً بالطاقة والقدرة النّفّاذة والنشاط الحيوي، وليس كل من يحبّ نفسه يستطيع أن يحبّ الآخرين ويعشق بهم، فكيف لمن في قلبه مرض وبغضاء وخمول؟! فهيهات أن يعرف نشوة المحبّة!

وأصابت «ثريا ملحس» في وصف مسيرة نعيمة مرحلة بمختصر مفيد ؛ إذ قالت : «**أحبّ نعيمة نفسه أولاً ـ ولعلّ هذه النرجسية أو حبّ الذات أولى درجات الحب وأولى خطوات معرفة الذات ـ فأحبّها وكرّمها و هذّبها ؛ ثم انطلق من بعد إلى الإنسان، ثم إلى الله، فالخليقة، فالوجود**» (١٩٦٤م، ص ١٠٨). وهذا الحب هو رسالة نعيمة القدسية. والحب هو القوة الإلهية التي تحدو بالإنسان إلى البحث عن خفايا الكون.

ولا يقدّم نعيمة الحب لأصدقائه ومحبيه فحسب، بل يقدمه لمبغضيه لقاء بغضهم ؛ إذ نعيمة إنسان كبير راحب صدره، ويعدّ الحبَّ مفتاح كل مشكلة وحقد وضغينة، ويشعر برسالته المقدسة التي غايتها الحبّ قائلاً : **قدّمت حبّي لمبغضيّا / لقاء ما قد جنَوا عليّا / فكان حظّي من مبغضيّا / إن عاد حبّي بغضاً إليّا** (نعيمة، ١٩٧٤م، ص ٥٩).

المحبّة في اعتقاد نعيمة هي سلام وطمأنينة وحريّة وعنصر جذرية وراسخة للكون، ويرى أنّ الكون كله مكوّن من عناصر أربعة. كما يقول عنها : «**عناصر الكون أربعة : م .ح .ب .ة ،والعنصر الوحيد يجمعها وهو أنا**» (نعيمة،١٩٤٦م، ص ٦٥).

وأما العناصر ـ إن كشفت ـ فهي الأحرف الأربعة التي تكون كلمة المحبة، وهذه سلالم « **تربط كل ما في السماء بكل ما في الأرض**» (نعيمة، ١٩٣٦م ،ص ٢٦).

ونستنتج أنّ المحبّة في نظر نعيمة ليست الفضيلة، بل إنها ضرورة أشدّ من ضرورة الخبز والماء والهواء ؛ كما يقول:

حذارِ أن يعتزّ أحد بمحبّته؛ إذ المحبّة لا تحمل معها المؤونة والنقود والمشقة، بل حسبٌ على الإنسان الإرادة والقصدحتى يحبّ الآخرين. وعليه أن يتنفس المحبّة غير مفكّر بها، وبمثل السهولة التي يتنفس بها الهواء ؛ إذ ليست المحبّة في حاجة إلى من يشيد بها ويرفعها (نعيمة، ١٩٣٢م، ص ١١٢).

يحذّر نعيمة الإنسان الذي يحبّ الآخرين أن يطلب ثواباً لمحبّته، غافلاً أنّ فائدة المحبّة ترجع إلى المحبّ لا المحبوب، ويتحقق للمحب الصدر الرحب والنشاط والسكينة الروحية وإزالة الضعوظ النفسية والحقد والبغض التي تسفر عن الأمراض الشائعة.

وكلامٌ آخر لنعيمة عن المحبّة: «**الحريّة لا تكون إلّا بالمعرفة، والمعرفة لا تكون إلا بالتعاون، والتعاون لا يكون إلا بالمحبّة، وأن المحبّة والمعرفة هما نهاية طريق الخير والشرّ، وأوّل الطريق إلى الحياة التي لا يحدّها خير ولا يحصرها شرّ**» (نعيمة، ب ١٩٧٣م، ص ٤١).

٤ـ ٢ـ المؤاخاة والسلام

في العالم الذي يتعانق الإله والإنسان، ويندمج الجماد بالحيوان، لو فتّش الإنسان عن غده لوجده في أمسه، وعن مهده لاكتشفه في رمسه، وعن والده للقاه في ولده، وعن نفسه لألفاه في كل نفس. ولو أنّ الإنسان أبصر الحياة ببصره، لما كان له من همّ سوى الانعتاق من كل همّ، حتى يستريح في ظل السلام والطمأنينة. واليوم، المجتمع البشري بحاجة ماسّة إلى التضامن والوئام والطمأنينة لتحقيق أهدافه في سبيل الوصول إلى الرشد والكمال والتطوّر في جميع جوانب الحياة، حتى لا تساق حياتهم إلى التباب والهلاك ؛ كما جاء في المثل: «لولا الوئام لهلك الأنام». من ثمّ يدعو نعيمة الإنسان إلى منابذة الصراع والمعارضة والضغينة والمفارقة، ناشداً إلى الإخاء والسلام والتضامن الروحي والفكري، قائلاً:

أليس الإنسان يسمّي من شاركه في دم أبيه وأمّه ولحمهما ورَضَع الثديَ التي رضعها أخاً لنفسه أو أختاً لنفسه؟ وما هو موقفه؟ فكيف بمن شاركه في لحم الحياة وخضمّها ودمها، ومن يرضع البقاء ويفطم الفناء في كل لحظة من الثدي التي يرضعها؟! (نعيمة، ب ١٩٧٢م، ص ٢٨).

وحقيق بالإنسان أن يقدّس الأخوّة إيماناً بانّ صلب الأخوّة المحبة. إنّ أخوّة كهذه في رأي نعيمة ما يقول:

الأخوّة المقصومة الصلب والمنفصمة الأواصر والوشائج لا تُنتج إلا القيح والوجع. إنّ الأخوّة كهذه لَأخوّة في عينها رمد، وفي أمعائها هواء أصفر. ومادام الإنسان معرضاً عن الأخوّة الصحيحة والسِّلم الصحيح، ظلّت حياته أرجوحة للحزن والألم، ومعتركاً للصراع والنزاع وفقدان الراحة. أمّا الأخوّة الصحيحة، فهي في تلاشي المحبّ في المحبوب، تابعاً أنّ السلام لا يمكن حصوله وتحقيقه في مجلس الثواب، ولا يُحمى بمدفع أو مدرّعة أو صاروخ، ولا يحتاج إلى من يحميه، بل يجب على الإنسان أن يفتّشوا عن السلام في قلوبهم. أما في غير القلب، فعبثاً يفتّشون! (المصدر السابق،ص ٣٠).

ميخائيل نعيمة إنسان مدرسة فريدة تستوعب الفضائل الإنسانية بحذافيرها، ويخفق قلبه خفقاناً شديداً للناس ولكمالهم ولسعادتهم، وقلبه ينبوع العطاء والسخاوة والمحبة ؛ لأنّ الإنسانية قوّة هائلة سلاحها المحبة والسخاء والمساواة. إنه يعتقد

أنّ البشرية تتمثّل بكاملها في كل فرد من أفرادها، وأنّ الله هو أبو الجميع؛ لذالك كان لابدّ للإنسان من أن يعامل أخاه في الناسوت معاملتَه لنفسه. و إن هو لم يفعل ذلك، وقع في الخطيئة. والخطيئة ـ كبيرة أو صغيرة ـ هي عقبة في الطريق إلى السعادة وهدفِه من الحياة (نعيمة، ١٩٣٦م، ص ٨٦).

أجل، قلب الإنسان مصدر المحبة والحنون ومصدر البغض والحقد، والإنسان مختار لاتخاذ أيٍّ منهما. ومن السخف والحماقة أن نزعم أنّ السلم يصون بآلة الحرب ؛ إذ التوازن الذي أراده الإنسان حصناً للسلم، يصبح شَرَكاً له. للسلم عُدّةٌ وللحرب عُدّةٌ. عُدّة

السلم الصدق والأمانة والثقة والتعاون والمحبة والعطاء والتعمير، بينما عُدّة الحرب الكذب والخيانة والشك والتنابذ والبغض والنهب والتخريب.

يستند ميخائيل نعيمة في اتخاذ السبيل إلى التعاون والحرية والسلام والإخاء بالقرآن، ويعدّه معجزة للناس التي تستطيع أن تجعل من الناس قوة غير قوة الأساطيل البحرية والقنابل الجهنمية.

معجزة القرآن في اعتقاد نعيمة

هي البقاء وعدم ستر غبار الزوال عليه؛ إذ إنّها أقامت للإنسان هدفاً من حياته، وكان بغير هدف؛ واختطّت له طريقاً إلى الهدف، وكان بغير طريق؛ وما اكتفت بأن أقامت له هدفاً واختطّت طريقاً، بل إنّها برهنت له بحياة النبي وصحبه. إن ذلك الهدف مستطاعٌ بلوغُه على من سار في الطريق. فحياة النبي وخلفائه الأولين مليئة بالعبر التي تهدي الناس سواء السبيل؛ فلا تتركهم ريشةً في مهبّ الريح (نعيمة، ١٩٥٢م، ص ٢٢).

ويردف قائلاً:

لو لم يترجم النبي وصحبُه القرآن إلى افعال، لما كانت المعجزة معجزةً، ولكنّهم ـ وقد امتلأت قلوبهم وعقولهم إيماناً ـ ما ترددوا في ترجمة إيمانهم إلى أعمال وأقوال تتوافق كل التوافق مع ذلك الإيمان. ومن الأخبار النبوية خبر شاة ذبحها أهل بيته في غياب النبي، وفرّقوها على المعوزين. وعندما عاد النبي، أخبرته عائشة بما كان، وأضافت أنّهم لم يُبقوا لأنفسهم من الشاة إلا الكتف. فكان جواب النبي لها: لقد أبقيت كلّها إلا الكتف. إنه لجواب حوى من البساطة والبلاغة والحكمة ما لم تَحوِه مجلّداتٌ من الفلسفة. بقيت كلُّها إلا الكتف (المصدر نفسه).

ومعنى ذلك أننا نكسب ما نعطيه، ونخسر ما نمسكه. فالذي ننفقه على الآخرين من أموالنا وقلوبنا وأفكارنا وأرواحنا يُحَسبُ لنا، والذي ننفقه على أنفسنا يُحسَب علينا. فنحن مطالَبون بسوانا قبل أن نُطالَب بأنفسنا! ونحن ـ وكلّنا عيال على الله ـ لا نستحق نعمة من نعم الله إلا إذا أبحناها من صميم القلب لغيرنا من عيال الله. فهل من يدلّ الإنسان بعد ذلك على طريق إلى الإخاء والسلم والتعاون بين الناس، وبالتالي إلى الحرية، أقرب من هذا الطريق وأقوم؟!

قصارى القول: إذا اراد الإنسان أن يعيش في السلام والوئام، عليه أن لا يفتّش عنه في المعاهدات الضخمة، ولا ينظّم المسودات الكثيرة لتحقيق السلام والإخاء، ولا يحاول أن ينقشه في الصخر. فالقلم الذي يكتب كلمة «السلم» بسهولة يستطيع شطبها بمثل تلك السهولة وكتابة « الحرب والضغينة» بدلاً منها. من هنا يرى نعيمة أنّ قلب الإنسان مجرد المحكمة الذي لا يحتاج إلى القاضي، وذلك ينبوع كل شيء.

٤ـ٣ـ الحرّية

كلمة الحرية لا تزال كلمة غامضة جداً في قواميس الناس. وأقامت البشرية أهدافاً كثيرة لنفسها منذ أن استوطنت الأرض حتى اليوم إلا أنّ الهدف الذي كان له أبعدُ الأثر في حياتها وفي حياة الشباب على الأخص، هو الحرية. ذلك الهدف الذي أريقت في سبيله أنهار من الدماء الزكية!

في العالم الذي نعيش، تُعَدّ الحرية الهدف الأسمى والثمين والأخير للكائنات بحذافيرها، وفي طليعتها الإنسان. وإذا شاء الإنسان أن يحرّر، فعليه أولاً أن يتحرّر عن كل فرقة وقيد ولون. والأهم التحرر عن نفسه. ومن كان عبداً لنفسه وحاجاته وأمياله الشهوانية، فحذار من أن يدعو الناس إلى الحرية؛ إذ إنّه لا يقودهم إلا إلى العبودية.

يضيف نعيمة أنّ هذه الحرية ثمينة وعظيمة جدّاً، وللأسف بعيدة عن متناوَل الإنسان:

لماذا الإنسان لا يقدر الحصول على هذه الحرية؟ لأنّه يعيش دائماً في جسدٍ حاجاته تتكاثر باستمرار، وصاحب الحاجة عبد لحاجته. حسب الإنسان أن يتّخذ من تلك الحرية هدفاً لحياته، فيبدأ ـ وهو في الجسد ـ يقلّل من حاجاته الجسدية بدلاً مِن أن يزيد فيها. ثم حسبه أن يتقبّل تأديب الحياة له بمنتهى الشكر والرضى، فيعمل على تنقية نفسه من كل فكرة ونيّة وشهوة تعرقل خُطاه نحو الهدف. حسبه أن يوسّع دائماً أبداً في وعيه لنفسه، إلى أن يصبح شاملاً شمول وعي الحياة. وإذا ذاك، فالحرية لن تمتنع عليه

(نعيمة، ١٩٧٥م، ص٧٣)

ومجمل القول: الحرية ما تزال مكتنف بحياة الإنسان من بداية نشأته وترعرعه. وعندما يجوع الإنسان إلى الحرية، فذلك دليل على أنّ الحرية موجودة. ونستطيع أن نقول: كرامة الإنسان ومجده وأهدافه السامية إلى الكمال والرقيّ العلمي ومحاولته للشموخ والتحليق واختراع الإنتاجات المتطوّرة يوماً بعد يوم وليدة تَوقه إلى الحرية، واستعادته جَناحي حرّيّته طليقين قادرين. وشعوره بها شعوراً عميقاً بها يفكّ عقال نفسه، فينبري للأشياء يهدمها ويبنيها من جديد.

٤ـ٣ـ١ـ الحرّية علم ومعرفة وحياة

الحرّية مدركة واعية، وهي العلم عينه، والمعرفة ذاتها من هنا توجد بين الحرية والجهل صلة وثيقة؛ حيث يكون الجهل لا يمكن تحقق الحرية والإنسان عبد ما يجهل ويرتبط العبودية إذاً بالجهل بينما تستند الحرية إلى المعرفة والشعور والوعى والخلاص ولا طريق إلى الحرية الكاملة الا الوعى والخلاص.والمعرفة هي الطريق المؤدّى إلى الحرية، والحرية هي الطريق المؤدّى إلى المعرفة.فحيث لا معرفة لا حرية، وحيث لا حرية لا معرفة إذ بذر الحرية هو المعرفة والمعرفة الشاملة، الكاملة هي الحرية.

الحرّية الخالصة من الأوهام والخرافات ومن الأهواء الشخصية والبريئة من الخوف والجبن والطمع والأنانية. والحرّية تدعو إلى الفكر والفهم والشعور، وهي ـ على حدّ تعبير ميخائيل نعيمة ـ الثمرة النادرة التي «**تنبت على شجرة نادرة تدعى الفهم والشعور**» (نعيمة، ١٩٤٦م، ص ٩١).

و يرى نعيمة أيضاً أنّ المعرفة ذاتها هي تحرّرٌ من كل شيء، وأنّ الحياة بغير الحرّية هي الموت. وقد سأل نفسه عن لسان الأرقش قائلاً: «**لماذا تريدين أن تعرفي كل شيء؟ أجابت: لأنّي أريد أن أتحرّر من كل شيء. قلت: ألا تكون حرّية بغير معرفة؟ قالت: بل تكون عبودية. قلت: ألا تكون حياة بغير حرية؟ قالت: بل يكون موت**» (نعيمة، ١٩٤٩م، ص ١٣٠).

٤ـ٤ الإيمان

يعتقد نعيمة أنّ الإيمان بهاء ثمين مؤنس هادئ. إذا ما شاع في دفائن نفس الإنسان، أزال ظلماتها وأدرانها؛ ثم يبصر الإنسانُ اللهَ في قلبه ونفسَه في قلب الله. لا يحصر زمان ومكان ولا يفصل أيّ فاصل عن أيّ إنسان، وينظر إلى الإنسان نظرة صافية وتفاؤلية، ويعرف بالضبط أنّه ونفسَه مساوٍ في الخلق؛ لذا يعدّه كجارحة في بدنه. يقول:

الإنسان الذي يسعى إلى الحياة والحرية لا يعتمد في الدفاع عنهما على سلاح من الحديد والنار؛ لأنّه يعلم أنّ الحديد يفلّه الحديد، والنار تأكله النار، ولكنّه يتسلّح بالإيمان الذي هو أقوى من النار، وأمضى من الحديد بما لا يُقاس؛ إذ إنّ الإيمان الناجم عن أعماق النفس والمحصن بشغاف القلب، وهو الصلة المباشرة ما بين المؤمن وربّه، فليست جميع قوى الأرض بقادرة على أن تمسّه بسوء!

(نعيمة، ١٩٥٢م، ص ٣٢)

الإيمان في نظر نعيمة :

ليس تأدية الغرائض بعينها في أوقات وأماكن بعينها ، ولا انصبابه في قالب من الطقوس التي لا تتغيّر ولا تتبدّل . الإيمان في اعتقاد نعيمة القوة الهائلة التي يَحسُن بالإنسان أن يتذرّع بها في وجه كل مصيبة تنزل به ، ويأخذ أبعاداً عرفانية تتجاوز الإيمان العادي .

(نعيمة ، ١٩٧٧م ، ص ٨٦).

الإيمان عند نعيمة نوعان : أعمى ومبصر. يقول عنهما : «**الإيمان الأعمي هو الإيمان الذي يبعثه الخوف في نفس المؤمن ، ويثرثر به اللسان ، ولا يمسّ شغافَ القلب من بعيد أو من قريب . ذلك الإيمان هو أضعف الإيمان ، ولكنّه خير من اللا إيمان**» .

يرى نعيمة أنّ الخوف نقيض الإيمان اللذان لا يجتمعان ، أما الإيمان المبصر

فهو حصيلة التأمّل العميق في بحر الحياة اللامتناهى . ومن شأن مثل ذلك التأمّل أن يبصر قلب الإنسان ، يفتحه أمام النوايا الطاهرة ، فتملأه محبة وخير وسخاء ، وأن يفتح فكره لمعجزاتها ، فتملأه دهشة . والإيمان الأعمى في الواقع عدوّ الإيمان ومواهب الإنسان . إنّه إيمان الشفاء دون القلوب . كل إيمان لا يقوم على الوعي والمحبة هو تحذير للإيمان (نعيمة ، ب ١٩٣٢م ، ص ١٨١).

من هنا يمجّد نعيمة الإيمان المبصر في أكثر من مجال ، ويدعو إليه ، كخطوة في سبيل المعرفة ؛ إذ إنّه وليد التأمّل العميق في بحر الحياة اللامتناهي. ويضيف :

تأتي المشاكل ومفاتيحها فيها ، إلا أنّ الذين لا إيمان لهم بحقّ غير حقّ السيف والساعد ، يلجّون في حلّها لجاجة تنتهي بأن تَخلقَ من كل مشكلة مشكلات . أما الذين يؤمنون بحق أقوى من الساعد والسيف ، فإيمانهم يهديهم إلى مفتاح كل مشكلة .

(نعيمة ، ب ١٩٧٣م ، ص ١٢٠)

المعهود أنّ الشدائد والويلات محكّ الرجال. ومن كان متسلحاً بإيمان قوي ، يجعل من الشدائد مطايا قوية للحصول على أهداف أبعد من أهداف الساعة ، وإلى آفاق تتلاشى عنده الشدائد ، كما تتلاشى غيمة في الصيف.

إنّ قلباً عامراً بالإيمان لَقلبٌ تنهار من حوله الشدائد ، ولا ينهار بالشدائد. وإنّ روحاً يشدّ أزره روح الإيمان والحق ، لَروحٌ يفهم أنّ ظلم الناس هو عدل الناس في الناس. ولا يقنط من عدل الله ، إذا ظلمه الناس ، بل يعمل الحق كما يفهم الحق ويعشق به.

٤ـ ٥ـ الصمت والتأمّل

ربّ حفلات دُعي الإنسان إليها ويبتلي فيها بثرثار يحكم عليه الحصار إلى أن يتمنّى أن تنشقّ الأرضُ لتبتلعه. فالثرثرة الداء المستحكم في كل ذي لسان لم تعقله عن الكلام عاهةٌ من العاهات. إنّ أقوى سلاح وأمضاها على الإطلاق يملكه الإنسان في كفاحه وصراعه مع المجهول وكشف النقاب عن الألغاز الصعبة التي يواجهها هو الفكر والتأمّل. فلولا الفكر والسكينة والجوّ الهادئ ، لخاض الإنسان في غياهب المغاور.

يقول نعيمة :

إذا الإنسان يُلهي الفكر بالقيل والقال ، فكأنّه يسخّر العاصفة لنقل قشّة من هنا إلى هناك ، والصاعقة لقتل ذبابة أو بعوضة ، ومثلما لا يتمّ الجمل ولا ينمو الجنين إلا في سكينة الارحام وظلماتها ، كذلك لا ، لا يُحبَل الفكر بعظائم الأمور إلا في سكينة الخلوات والتأمّلات (نعيمة ، آ ١٩٧٣م ، ص١٢٣).

كثرة الكلام تَهلُكة للفكر والبشر. يهربون من السكوت والتأمّل. فأنّى لهم أن يدركوا ويعرفوا الله؟! والذين ينادون باسم الله من غير أن يدركوه بالتأمّل والطمأنينة ومن غير أن يجدوه في أنفسهم، عبثاً يجدون طريقاً إلى الله. والجدير بنا أن نتّعظ بأقوال المعصومين إشرافاً على أوقاتنا، ومخافة أن لا نسوقها في أتفه الأمور. وجاء في الأحاديث: «**التفكّر ساعةً أفضلُ مِن سبعين سنةً عبادةً**».

أجل، بالصبر والسكوت والتعقّل ينال الإنسان كل شيء.

ويقول نعيمة في *مذكرات الأرقش*: «**الكلام مزيج من الصدق والكذب. أما السكوت، فصدقٌ لا غشّ فيه. لذاك سكتتُ والناس يتكلمون**» (١٩٤٩م، ص ٥٤).

و من كلماته القصار: «**إن يكن الصمت من ذهب، فما أغنى الخُرسان!**» (نعيمة، ج ١٩٧٣م، ص ٥٢).

٦.٤ رحابة الصدر

يستوعب أدب نعيمة جميع الفضائل الإنسانية والصفات الحميدة استيعاباً كاملاً، بغية أن يتسلح الإنسان بها بأكملها، ليسهّل المعقّد من سبيل المعشية، ويتعامل الحياة سلماً وصفاءً. ولئن اكتملت للإنسان كل الصفات الحميدة إلا رحابة الصدر، بقي ألعوبة في أيدي الزمان.

ورحابة الصدر تعني الصبر الجميل على معارضة الدهر وصروفه من أيّ نوع كانت، ومن أيّ مصدر نبعت، كيما يتاح للفرد أن يقوم ويستحكم نفسه وشخصيته أمام الويلات ومتناقضات الحياة. وأما إذا الإنسان حاول القضاء على كل معارضة وسيّئة، فهو منتهى الاستهتار بالعقل والمنطق؛ لأنّه فوق طاقة أيّ إنسان.

ويتطرّق نعيمة إلى هذا الموضوع ويعطي الإنسان الحالي المنهج القويم لإرساء هذة الخصلة القيّمة في نفسه قائلاً:

> **إنّ المعارضة هي الطريق الأوحد إلى المعرفة والحياة والحرية. ولولا المعارضة، لما كانت حركة، نشاط أو حياة. لقد كان الله ـ وهو القدير على كل شيء ـ رحب الصدر إلى حدّ أنّه خلق من ذاته معارضين لذاته. فما دام الإنسان بعيداً عن المعرفة التي لا يفوتها علم شيء، وعن القدرة التي لا تعاندها قدرة، وعن الحرّيّة التي لا يحدّها حدّ، والحذر أن يضيق صدر الإنسان بمعارضة معارض أو بمنافسة منافس! والإنسان كلّما تبرّم بمعارضيه ومنافسيه، شدّد أزرهم على نفسه، وشحّذ سلاحهم ضدّه، وهم حادوا بالإنسان عن جادة الصواب والرشاد إلى جادة الضلال والفساد** (١٩٥٢م، ص ٥٣).

من هنا ليس خليقاً بالإنسان أن يزدري بأيّ إنسان من الناس؛ سواء الإنسان القوي أو الإنسان الضعيف، وعليه أن يبتعد عن السوء والظلم؛ لذلك يوصّي الإنسان برحابة الصدر تجاه الأقوياء والضعفاء على السواء. ومن ضاق صدره بالمعارضة وسوء النية، ضاق بالحياة التي لا تقوم بغير المعارضة؛ لانّ الإنسان لا يكون إلا أفكاره وتأملاته عن الحياة، وكل ما يحدث في خضمّ الحياة.

> **والصدر يضيق أو يتّسع على قدر ما تصغر وتهون النفس أو تكبر أو تعزّ، في حين أنّ النفس الصغيرة تضيق بالكبيرة، فتنصابها العداء. تتسع الكبيرة للصغيرة، فتقابلها إما بالصفح وإما باللامبالاة؛ لذلك كان صغار النفوس مبعث الفساد والقلق في الأرض، وكان كبار النفوس ملح الأرض وخميرتها، والواحات النديّة النضرة في صحاريها** (١٩٤٦م، ص ٤٩).

أجل، إن الحياة مبني على الأخذ والعطاء والمحبة وطهارة القلب وغسل العين وصفاء النية دون أيّ منّ وطمع؛ لذا إذا حصر الإنسان صدره، حصر الآفاق أمام عينيه. إذا الإنسان ضاق صدره بالحياة ولم يكن له عين طاهرة حتى ينظر إلى الآخرين نظر الإنسان الحنون الذي خالٍ عن أيّ سوء وتشاؤم وحقد وحسد، في الواقع لا تحصل له فائدة من حنكات الحياة، وإنّه لعبء على الحياة والموت معاً.

وينصح نعيمة الإنسان أن يفقّه لحظة فيما يكون حوله وما اكتنفه من أسرار الحياة وغوامضها حتى يتعلّم رحابة الصدر من الأرض ومن البحر ومن الهواء :

الأرض لا تضيق بالظِّربان دون الغزلان ، وبالتراب دون التِّبر والفضّة ، وبالأشرار دون الأبرار والبحر لا يقبل اللؤلؤة دون البنفشجة ، والجدول الصافي دون الساقية العكرة ، ومراكب الحجّاج دون مراكب القُرصان . والهواء لا يرقص لشَدو البلبل ، ويمتعض لنقيق الضفدع ، وهو لايستأنس بالنهار ويستوحش بالليل . وعلى الإنسان أن يستلهم من الطبيعة ويتعلّم منها درس الحياة والإخاء والسخاء والتعاون وصفاء الباطن قبل كل شيء وبعد كل شيء سيراً على بركات الله ، ويتذكر في خَلَده أنّ الحياة كلها أخذٌ وعطاء دون أيّ طمع (السابق ، ص ٥٥) .

٤ـ ٧ حسن الظن والتفاؤل

كما نعرف ، إنّ ميخائيل نعيمة يعتبر من أدباء المهجريين ، ومن ميزاتهم هي النظرة التفاؤلية إلى الكون وكل ما فيه ، النظرة التي تساعد الإنسان على اختيار النهج السديد في الحياة مؤدياً إلى الحياة الفضلى والسعادة والكمال ومعرفة الله.

ويرى نعيمة أنّ كل ما في الطبيعة جميل وثمين ومنظّم ، والطبيعة مدرسة للجميع ، وأمّنا الرؤوم. منها لحوم الناس وعظامهم وأنفاسهم ومهدهم ولحدهم. ويناشد الإنسان إلى التفاؤل وعين الرضا قائلاً : «**كل ما في الكون هو جميل وكمال ، ولا حريّ بالإنسان أن يُغمض عينَ الرضا ويفتح عين السوء**» (نعيمة ، ب ١٩٧٢م ، ص ١٤٨).

يقول نعيمة :

كيف للإنسان أن تكون له عين رضى وعين سوء في آن معاً؟! ألعلّ الرضى والسخط ، والحسن والبشاعة ، والأنس والاشمئزاز صفات كامنة في حدقة العين وإنسانها ، حتى إذا هي نظرت إلى الكائنات ، أبصرت بعضَها بغير سيّئة أو عيب ، فكانت عين الرضى ، وأبصرت الآخرَ طافحاً بالعيوب والمساوئ ، فكانت عين السوء؟ ولكن العين ليست أكثر من آلة فوتوغرافية تلتقط ما ينعكس عليها من الأشكال والألوان . وسيّانِ عندها أكان ما يُرتَسم عليها كومة من الزّبل والديدان أم حَفنة من الجوهر!

(المصدر نفسه ، ص ١١٥)

الكمال في رأي نعيمة :

الجمال ، و الجمال يعني الانسجام التام ؛ وحيث الانسجام التام لا مجال لـ « لولا » و« لعلّ » و« عسى » ، فلا نقص ولا عيب ولا لومة للائم . أما الإرادة ، فعملها أن تعكف على ما يراه الفكر والخيال ، فتجعل منه حقائق راهنة يقتلها الوجدان الحيّ عن رضى ، وعن إعجاب ومحبّة (نعيمة ، آ ١٩٧٣م ، ص ٥٨).

كما قيل في الأمثال : «ولا بد دون الشهد من إبَر النحل» ، وعلى الفكر والخيال أن يدركا أن شهد النحلة ما كان لولا إبرتها ، وأن النحلة الكاملة لا تكون بغير إبرة كاملة ، وعلى الإرادة أن تجعل الإنسان يرضى عن إبرة النحلة رضاه عن شهدها.

إنّ عين الرضا هي العين التي تقيم في بؤبؤها وجدانٌ تَعَلّم أن ينظر إلى الأكوان بمجموعها لا بأجزاءها ؛ فهو لا يبارك أنوارها ويلعن ظلالها ؛ لأنّه يعرف أن النور لا يسطع إلا في إطار من الظل . فالنقص ظل الكمال ، والبشاعة ظل الجمال ، والرذيلة ظل الفضيلة .

(المصدر نفسه ، ص ١١١)

يتبع نعيمة قائلاً :

إن أحوج ما يحتاجه الإنسان اليوم وفي كل يوم هو عين الرضى . فلو كان له مثل تلك العين ، يبصر بها الزوج زوجه ، والأب بنيه ، والجار جارّ ، والإنسان أينما كان أخاه الإنسان لما عرف مآسي المخادع الزوجية ، وصراع الآباء والبنين ، وخصام الجار مع الجار ،

وثورة الإنسان على الإنسان، بينما عين السوء هي التي يُطلّ من إنسانها وجدانٌ يقوم بفكر مغلق وخيال هزيل وإرادة مرضوضة؛ فلا تستطيع أن ترى الأشياء إلا إذا سلخت بعضها عن بعض وبعثرتها نتفاً. وبمثل تلك العين تتلاقى الأمم وتتخاطب وتتعاقب، ثم لاتلبث أن تتشابك في ميادين القتال (السابق، ص ١١١).

من هنا نرى أنّ نعيمة يهزأ بالمتشائمين ناشداً:

ذمُّك الأيامَ لا ينفعكا / فهي لا أُذنَ لها تَسمَعُكا / لا ولا عينَ تراها عقرباً /في دياجير الأسى تَلسَعُكا / ذمّك الأيام لا ينفعكا / إنما الأيام لا تسمعكا / فهي منك الظل يا صاحبيا / عجباً! ظِلُّك كم يخدعكا! (نعيمة، ١٩٤٥م، ص ٦٤).

يهجم نعيمة على المتشائمين محاولاً أن ينبّههم على الحياة وسلطانها على الأحياء، وهو دليل على سرّ الحياة الذي يرمي إلى الغاية المنشودة.

ويصرّح أن الإنسان هو أسمى مظهر من مظاهر الحياة على الأرض، وهذا الإنسان ما عاش في هذه الحياة إلا ليبلغ غايتَه وكماله، ولو لم يكن واثقاً من مقدراته ومؤهلاته وعظمته كعصارة الحياة وكذريعة نشأة الحياة، لاستسلم لنكبات الحياة وصروفها وللموت من زمان.

ألا أغمِض اللّهمّ عينَ السوء فينا، وافتح لنا عين الرضى، لعلّنا نبصرك في أجسادنا وأرواحنا، وفي كل ما نثرتَ وكل ما صوّرتَ لنا من جمال وكمال.

هنا نأتي بنبذة من الحوار الذي جرى بين «نسيب عريضة» و«ميخائيل نعيمة» في نيورك عام ١٩١٦م، والذي يدلّ على روح أديبنا السامية وفكرته الأخلاقية وكونه أسوة للقيم الفكرية والروحية:

ـ أين تريد أن تعيش؟

ـ في لبنان.

ـ أيَّ الأخلاق تهوي في الرجل؟

ـ الشهامة.

ـ وفي المرأة؟

ـ الصدق.

ـ وأيّها تكره في كليها؟

ـ الرياء.

ـ لو لم تكن أنت ميخائيل نعيمة، فمَن تودّ أن تكون؟

ـ أفلاطون.

ـ ما رأيك في السعادة؟

ـ أن أجعل غيري سعيداً.

ـ ما رأيك في الشقاء؟

ـ عظة يفهمها الحكيم ويتذمّر منها الجاهل.

ـ بماذا أنت ممتاز على ظنّك؟

ـ بالتفاني في سبيل ما أحسبه حقاً.

ـ ما هو أشرف ميل طبيعي؟

ـ الحبّ.

ـ ما هي ألطف الكلمات؟

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

ـ أخي.
ـ وما أقساها؟
ـ عدوي.
ـ ما هو غرضك في الحياة؟
ـ أن أكتسب اختباراً يزيد نفعي لنفسي وللغير .
ـ أيّ الكتب تُؤثر؟
ـ الإنجيل.

(جريدة *الحياة*، بتاريخ ٢٠٠١/١٢/٨م، نقلاً عن www.awudom.com).

٥ـ في سبيل المعرفة

الأديب الذي كانت سبيله المعرفة وسلك طريق الحق والكمال والأخلاق لابدّ له من التأهّب والاستعداد للمجاهدة الروحية. أما زاد المجاهد، فهو الفضائل الإنسانية الرائعة التي تجعل الإنسان كبيراً في ذاته.

كان نعيمة متزوّداً بالفضائل، وجاهد في سبيل تحقيقها؛ و لا غرو إذا حاول نعيمة في صباه أن يقلّد أباه؛ لأنّ الأب يكون المثل الأعلى لكل صبيّ. فكان أبوه صبوراً قَنوعاً مسالماً صامتاً متأمّلاً عميق العاطفة، ولا يزال أديبنا يكبر، وتكبر معه فضائله؛ كما كره الخصام والكذب والرياء، وأقسم أن يحاربها حيثما كانت. ومن طبعه حبّ للوئام والسلام وطلب المعالي والسمو إلى أقصى ما يمكن أن يبلغ الإنسان إليه.

في اعتقادنا، لعلّ الدافع الذي جعل أديبنا أن يختار القلم في سبيل القيم الأخلاقية والذبّ عنها هو تأثره بالكتّاب الروس الإنسانيّين الذين خدموا الإنسانية بروائعهم، وأحيَوا الضمائر، وحاربوا الظلم والاستبداد، والجهل والفقر في كل مكان؛ لذلك قد تحمّس جداً للقيم الإنسانية التي شاعت في الأدب الروسي. ونرى بوضوح التزام أديبنا برسالته التي حملها في أدبه، وهي نشر القيم الإنسانية العالية المبنية على الإخاء والسلام والإخلاص والمحبّة؛ كما حاول نجاة الإنسان من رغوة المدنية الغربية.

وحمل نعيمة هذه المسؤولية على عاتقه راضياً بالقلم؛ إذ إنّه كان يكره العنف والرخوة في جميع مظاهره، وأكبّ على القلم ميلاً وشوقاً، وهيّأ نفسه للامتثال أمام الحق، ودافع عن الفضائل الإنسانية بقلمه.

وقد ترعرع الحق في جميع جوانب حياته على لسانه، وقتل الخوف في قلبه، ولم تُسكته قوّة عن قول الحق، ولو كان على نفسه. والمقطوعة التالية تُغنينا عن الإطراءات والمغالاة والإطناب.

فَلْيكنْ لي يا إلهي
من لساني شاهدان
صادقان
إن أُفُهْ بـالحـقّ فلْيشـهـدْ معـي
أو أُفُهْ بـالباطل فلْيشـهـدْ عليّ
و إذا مـا قـام غيـري يدّعـي
يـا إلـهي الحقَّ في بـطل وغيّ
فلْيـكـنْ سـيفـاً لسـانـي حـدّه
فـي سبيـل الحق ماضٍ لا يهاب

لا يكفّ الضرب حتى ضدّه
ينثني عن غيّه نحو الصواب

(نعيمة، ١٩٤٥م، ص ٥٤)

ما يلفت النظر في أدب نعيمة هو أنه منذ ترعرعه عقلاً وقلباً ضحّى نفسه في سبيل الفضائل الإنسانية والقيم الروحية. ونرى زيادة تمسّكه بالفضائل الإنسانية ورفض المكاره عندما احتّك بالغرب؛ فضاق صدراً بمادّيّة الغرب، وندّد بالغرب؛ لأنه لا يرحم الإنسان، وإن كان رحيماً به، فرحمه ظاهري. كما اعتبر نعيمة الغرب عائقاً في سبيل المعرفة الكبرى والسعادة العظمى.

فهذه نظرية أخلاقية بحتة نتقبّلها؛ إذ يعتقد نعيمة أنّ في إقرار الشرق بضعفه وعدم إشرافه على قوى الموت والحياة ليس بمعنى رفضهما، بل يعترف الشرق بالموت والحياة، لكن التأمّل هنا، أن الغرب يكابر قوى الموت والحياة بجميع طاقاته؛ إذ إنّه يكفر بالله، ولا يؤمن بالموت والحياة. من هنا جاء كفرُ نعيمة بالغرب الآلي، وإيمانه بالشرق الإنساني.

وقد أعجب في حياته بأقوال السيّد المسيح ﷺ في الله، وأقوال محمد ﷺ في الله، وأقوال «لاوتسو»[1] في الله. وهو ثار على كل عمل قبيح شنيع من أجل الإنسان، ومن أجل سلامته وطمأنينته وهدوئه وعزّته وكرامته.

كما أنّ نعيمة كان في الصراع الدائم مع نفسه وصولاً إلى المعرفة والحقيقة. وهذا الصراع يمثّل قمّة نضجه الفكري التي بلغها بعد معاناة طويلة مضنية في سبيل المعرفة. من هنا نرى أنه يقف كتاباته وأحاديثه ومقالاته وخطبه على تبصير الناس بالمعرفة.

ما تجدر بالإشارة هنا أن نعيمة كان واقفاً على جميع لحظات حياته؛ إذ كان هدفه في الحياة محدّداً وموجّهاً، وقد صوّر لحياته وحياة الآخرين المنهجَ السديد للوصول إلى المعرفة؛ لذلك يهجم على الذين يقضون أوقاتهم لهواً وعبثاً، وينخرطون في أودية الهُيام والارتباك. وكان يعتقد أنّ العمر فرصة لكسب المعارف والوصول إلى غايته هي المعرفة الكبرى.

والمعرفة الكبرى في اعتقاد نعيمة لا تحصل إلا عن طريق المراقبة ومحاسبة الإنسان نفسَه، ويرى أن الإنسان خليق به أن يزيل ضباب الجهل والشك عن آفاق نفسه. ولابدّ من بدئه بنفسه وتطهير قلبه وضميره من آفات البشر من الحسد والذل والبغض والحقد والنميمة والجشع والكبرياء والغرور وحبّ الظهور والغضب. وبعد أن تقهر تلك الآفات، تحلّ محلّها الفضائل وتتوافر للإنسان النشاط والعقل والإيمان، ويُعبَّد المسير في طريق المعرفة.

كما يبدو لنا، كان نعيمة كثير التأمّل في الطبيعة وفي كائناتها عامّة؛ فقد بات يقلقله ويلحّ عليه بالسؤال تلو السؤال. فجزم عزمه على معرفة الأسرار وإزالة الشكوك والترديدات حتى يحظى بالمعرفة الكبرى التي هي العودة إلى المنبع الصافي بعد التخلّص من الجسد.

و نلاحظه في ابتهالاته يطلب من الله أن يوقظ ضميره ويعطيه عيوناً بصيرة وأذناً واعية:

كحِّل اللهمّ عيني
بشعاع من ضياك
كي تراك
في جميع الخلق، في دود القبور
في نسور الجوّ، في موج البحار
في صهاريج البراري، في الزهور
في الكلا، في التِّبر، في رمل القفار

(نعيمة، ١٩٤٥م، ص ٦٢)

١. Lao-tseu فيلسوف صيني. عاش نحو ٦٠٠ قبل الميلاد. له كتاب *الطريق والفضيلة*.

هكذا نرى قلب نعيمة يخفق للوصول والقرب إلى الله خفقاناً شديداً، كما له تعطّش إلى المعرفة التي لا يجد لها منسرباً. وعندما كحّل الله عينيه بقبس المعرفة، انجلت أمامه المخلوقات وتساوت، ورأى نفسه سعيداً في نشوة إلهية. ورأى الله فيضاً في جميع الكائنات. و هذه النزعة إلى المعرفة يشتدّ في جميع جوارح نعيمة حتى يستأثر به. وبتلك النزعة نَعَمَ نعيمة بالمعرفة الكبرى، وانتهى إلى الفهم المقدّس، بعد المجاهدة والإشراق والمشاهدة.

كما هو ينعم بنشوة الإيمان بالله والخليقة. ونلاحظ أنه اندفع مبتعداً متتبعاً مرّات خُطى المسيح في جبال الناصرة وأوديتها ليسعد بالغبطة الروحية. وما عاش إلا باليقين والإيمان بأنّ الخليقة لم تكن من العدم، بل خالقها هو الله الذي لا يحدّه زمان ولا مكان، فركع إلى الله وآمن به إيماناً ما أحاط به أيّ شك وإضطراب.

و هذا الصراع الدائم مع نفسه في سبيل المعرفة هو أروع ما في أدبه ؛ حيث جعله من المحاور الرئيسية التي تدور عليها فكرته.

ومن خلال تصوير كفاحه العنيف الذي خاضه في حياته يكشف لنا أنه يبحث أبداً عن الكمال والحقيقة والمعرفة.

نقول في النهاية : إن نعيمة أديب أخلاقي تزخر آثاره بالدراسات الإنسانية الأخلاقية، ولا يتخلى الأديب في أثر من آثاره ومقالة من مقالاته عن تجاوب الأدب والأخلاق.

وددنا أن نعالج شتى المظاهر الأخلاقية ضمن المختارات النثرية والشعرية ؛ إذ إن عنوان المقالة جامع ويستوعب جميع آثار نعيمة، لكن خشينا أن يتجاوز حجم المقالة الحد المحدد والمرسوم له ؛ فاكتفينا بهذا المقدار، وجعلنا هذه المسؤولية على عواتق الذين يخفق قلبهم للفضائل الإنسانية والأخلاقية.

ونحسب أننا قد أدّينا الرسالة بهذا الأمر ؛ وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وإليه ننيب.

نتائج البحث

في نهاية المطاف وبعد هذه السياحة القصيرة في صلة أدب نعيمة بالأخلاق وآرائه وأفكاره حول الأخلاق والحياة والإنسان، نستنتج أن أدب نعيمة ترجمان للفضائل الإنسانية والأخلاقية والقيم الروحية. فهو لم يكن أديباً فحسب، بل حاول أن يكون هادياً إلى الحياة الفضلى وإلى طريق الكمال والسعادة.

و نودّ أن نركّز على الحقايق التالية التي تمثل نتائج البحث :

١. التأمّل والتفكر روح أدب نعيمة وجوهره، وكان ساعياً في أن يعمّق أفكاره ويفلسف مشاعره ؛

٢. رسالة نعيمة هي البحث عن معنى الإنسان والغاية من وجوده. فتعالج النواحي الباطنية من حياة الإنسان والقوى التي لا تزال مغلقة في كيانه : أهو كائن طارئ تتحكم فيه أقدار عمياء، أم إنّه كائن ينطوي على قوى هائلة تمكّنه في المستقبل القريب أو البعيد من أن يبلغ منتهى ما يتشوّق إليه من المعرفة والحرية؟

٣. اتسع مفهوم الحب عند نعيمة حتى صار منهاج حياته، واتخذ من الطبيعة دستوره ومبادئه ومُثُلَه العليا ؛ إذ الطبيعة لا تزال عنده من أعذب الموارد التي استقى من معينها تأملاته وأفكاره، وتفهمّ سياستها واكتنه دستورها بعينه وقلبه، واعتقد أن دستورها الطاعة ومصدر تلك الطاعة المحبّة.

٤. لم ينصبّ التأمّل في الوجود عند ميخائيل نعيمة على أصل الكون، وانما على التأمّل في مظاهر الوجود الكوني وحقيقة الوجود الإنساني. فبحث عن حقيقة سعادة الإنسان، وأدهشه تناقض القيم التي تحوطه من كل جانب، وآمن بوحدة الوجود، واعتقد بألوهية الإنسان ؛

٥. في أدب نعيمة ظهرت نزعة إنسانية واضحة تدعو إلى الأخوّة والمحبّة والوحدة بين الناس، وترفض الظلم والحقد والعداوة والكراهية والتفرقة. ويتألّم هذا الأدب من انقسام المجتمع الإنساني إلى الفقراء والأغنياء، ويناشد عطف الإنسان على الإنسان، والعمل على خلق مجتمع إنساني يسوده العدل والحريّة والمساواة والإخاء والطمأنينة والرحمة والمحبّة ؛

٦. وفي موقف نعيمة من الحياة، فهو مقبل عليها برغم نصوصه التي تهاجم الوجود والناس أحياناً. وكان مهاجماً لوجه الحياة الفاسد ولم يهرب منها، وثار على الظلم، لكنّه لم يشهر سلاحاً، بل كان جهاده خطاباته وكتبه، ولاسيّما نظراته النقدية التي تنبثق عن أدبه الملتزم والرسالي وعن عبقريته الفذة. فقد آمن بأنّ الموت والحياة ممتزجان ؛ فلا حياة ولا موت، وإنما هناك وجود دائم متجدد، واعتقد أنّ ما يصيب الإنسان من مصائب في حياته هو عقاب له على جرائم ارتكبها ؛

٧.مما تقدّم، نستطيع القول إن ميخائيل نعيمة عليم بالأدب الروسي وتأثّر بالشخصيات الأدبية في القرن الماضي، ويعد من أنصار أفكار ليف تولستوي، وكلاهما من أنصار السِّلم، ونَدّدا بالحرب الهجومية والدفاعية، وشجبا استغلال الإنسان لاخيه الإنسان، وطالبا الأغنياء بتوزيع أملاكهم على الفقراء، وطلبا من الناس العفة واحترام الأسرة. والأفكار المشتركة بينهما كثيرة نراها في معظم مؤلفات نعيمة ؛

٨. نعيمة أديب مهجري تخلج العاطفة الإنسانية في نفسه خلجاناً شديداً. انكبّ ـ ككثير من الأدباء المهجريين ـ على الحديث عن الرذائل الأخلاقية التي استولت آنذاك على الإنسان. ولا غرو، فإنّ الظروف الاجتماعية التي تسود البلدانَ العربية آنذاك من ظلم الحكّام والجهل والقمع والحروب التي خلقت الجوع والتشريد والتبعية وإقامة الدول الاستعمارية ساقت نعيمة إلى معالجة مشاكل مجتمعه. وكان يحبّ أن يرى الإنسان في ذروة الرقيّ والسعادة ؛ إذ يعتقد أن الإنسان بذار إلهي لابدّ أن يتّحد بالله. من هنا يصرّح نعيمة بهذا الحبّ أكثر من مرّة. فلأجل ذلك يحتفل بتخلّص الإنسان من الآفات الاجتماعية والعثرات المعرقلة في سبيله. وحبّ نعيمة في أدبه هو بناء المدينة الفاضلة ليعيش الإنسان فيها لا العربي فقط، ويدلي بآراء ومقترحات قيّمة لإزالة كل الرذائل والآفات ؛ وكل ذلك من أجل شخصيته وولوعه بالإنسانية التي تسوقه إلى الحديث عن الرذائل والآفات الإنسانية، فيستخدم قلمه لأجل الإصلاح، ونجاة الإنسان من كلّ شيء.

٩. ما استخلصنا من هذه المقالة أنّ نعيمة يرفض مذهب «الفن للفن»، ويذهب إلى أنّ الأدب ينبغي أن يكون خادماً لحاجات الإنسانية، ويكون المعبّر الأفضل عن النفس البشرية محاولاً تنمية الضمير الوجداني، وتسيير الطرق للوصول إلى سعادة البشر والكمال. ولا يجدر بالأديب أن يطبّق عينيه ويُصمّ أذنيه عن حاجات الحياة، وينظم ما توحيه إليه نفسه فقط، سواء أكان لخير العالم أو لويله ؛

١٠. أدب نعيمة أدب خالد خرج عن حدود الإقليم ؛ لأنّه تطرق في قوالب الأدب إلى القيم الإنسانية والأخلاقية التي يقبلها الإنسان في أيّة لغة وملّة كانت.

❋❋❋

المصادر والمراجع

ـ القرآن الكريم

١. شيا، محمد شفيق. (١٩٨٧م). ***فلسفة ميخائيل نعيمة***. بيروت: مؤسسة بحسون للنشر والتوزيع.

٢. ملحس، ثريّا. (١٩٦٤م).***القيم الروحية في الشعر العربي***. بيروت: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني.
٣. نعيمة، ميخائيل. (١٩١٧م).***الآباء والبنون***. بيروت: مؤسسة نوفل.
٤. ـــــــــــ. (آ ١٩٧٣م).***أحاديث مع الصحافة***. بيروت: مؤسسة بدران وشركائه.
٥. ـــــــــــ. (١٩٤٠م).***البيادر***. بيروت: مؤسسة نوفل.
٦. ـــــــــــ. (آ ١٩٣٢م).***دروب***. بيروت: مؤسسة نوفل.
٧. ـــــــــــ. (١٩٣٦م).***زاد المعاد***. بيروت: موسسة نوفل.
٨. ـــــــــــ. (آ ١٩٧٢م).***سبعون***. بيروت: مؤسسة نوفل.
٩. ـــــــــــ. (ب ١٩٧٣م).***صوت العالم***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١٠. ـــــــــــ. (١٩٧٥م).***الغربال***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١١. ـــــــــــ. (ب ١٩٧٢م).***في مهبّ الريح***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١٢. ـــــــــــ. (ج ١٩٧٣م).***كرم على الدرب***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١٣. ـــــــــــ. (١٩٤٦م).***لقاء***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١٤. ـــــــــــ. (١٩٤٩م).***مذكّرات الأرقش***. (ط ٥). بيروت: مؤسسة نوفل.
١٥. ـــــــــــ. (ب ١٩٣٢م).***المراحل***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١٦. ـــــــــــ. (١٩٥٢م).***مرداد***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١٧. ـــــــــــ. (١٩٧٤م).***نجوى الغروب***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١٨. ـــــــــــ. (١٩٥٠م).***النور والديجور***. بيروت: مؤسسة نوفل.
١٩. ـــــــــــ. (١٩٧٧م).***ومضات***. بيروت: مؤسسة نوفل.
٢٠. ـــــــــــ. (١٩٤٥م).***همس الجفون***. بيروت: مؤسسة نوفل.
٢١. ـــــــــــ. (١٩٦٥م).***هوامش***. بيروت: مؤسسة نوفل.
٢٢. ـــــــــــ. (١٩٦٩م).***يا ابن آدم***. بيروت: مؤسسة نوفل.

المواقع الإنترنتية :

٢٣. جريدة *الحياة*، المورخ ٢٠٠١/١٢/٨م في: www.awudam.org
٢٤. عبدالأحد، يوسف. (٢٠٠٢/٦/٢٢م). «الفيلسوف المفكر ميخائيل نعيمة ١٨٨٩ـ ١٩٨٨». جريدة *الأسبوع الأدبي* . في:
www.awu.sy/archive/alesbouh ٨٠٢/٨١٣/isb٨١٣ـ٠٢٤.htm